

الكلمات وجرسها أو التثام حروفها وقوة معانيها وفخامتها وروعة خيالها ما لا يجده في بعضها الآخر، فيفضل الأولى على الثانية دون أن يبحث عن علة لذلك الحكم" (47).

2 — البصيرة النفاذة والعقل القادر على المفاضلة والموازنة والتحليل ووضع المقدمات الصحيحة ليتوصل بها إلى نتائج يطمئن إليها العقل ويسلم بصحتها، وذلك أن الأذواق تختلف، والطباع تتفاوت، فكان لابد من وضع أسس علمية يحتكم إليها الجميع مسلمين بها لأنها قوانين العقل التي لا مفر من التسليم بها، وكان من ضرورة الأمور أن يتلاقى المذهبان، فليس من السهل على أي دارس أن يغفل جانب الذوق والفطرة إلى جانب العقل والتفكير" (48).

لقد انبثقت إذن الدراسة الأدبية من هذين الرافدين، رافد الذوق الفطري، ورافد البصيرة النفاذة، والشرح، كما نعلم، جزء لا يتجزأ من الدراسة الأدبية، بل هو أحد عناصرها الأساسية، أو لنقل أنه بدأ منذ قول الشعر، والتساؤل حوله، وحول قصد الشاعر من قوله، ومرتبته هذا الشاعر في طبقته.

خاتمة:

يبدو أن هذه أغلب الأسباب والدوافع التي أدت إلى ظهور الشروح الشعرية لتلك المجموعات، من دواوين ومختارات وأشعار القبائل. وقد نهض بهذا العمل الجليل، علماء كبار، كان لهم الفضل الكبير في الدراسات الأدبية واللغوية، ولم يكن يشملهم التخصص، بل كان همهم الوحيد هو العلم، وقد قادتهم هذه الشمولية في الدراسة إلى شمولية في مؤلفاتهم، فكتاب في علم اللغة قد نجد فيه ما يتعلق بإعجاز القرآن، والنقد والبلاغة وأساليب الكلام. وهكذا كانت شروحهم الشعرية، إذ كانت تحوي جملة من الدراسات، على الرغم من أنها بدأت لغوية نحوية بحثية، إلا أنها شملت ميادين أخرى، كما سبقنا الإشارة إلى ذلك، ولم يكتف هؤلاء الدارسون بشرح ألفاظ القصيدة، بل تعدوا ذلك إلى تقويم الشعر الذي هم بصدد شرحه وتحليله، وخاصة في فترات متلاحقة. وهذا التحليل الدقيق للصياغة والأعاريض والشعور والمعاني، وملاءمتها للحياة الاجتماعية، وإفصاحها عن حاجات العصر، كل أولئك كان الأصول التي قامت عليها الخصومات في التفاضل بين الشعراء" (49)، وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن النقد العربي القديم كان في بدايته ذاتياً، يختلف باختلاف الأذواق، والأمزجة،